مفهوم الشاعرية بين أنصار أبى تمام والبحترى

الدّارس للخلاف بين أنصار أبى تمام والبحترى يلاحظ شيئًا غريبًا، وهو أن الحديث عند كلا الطرفين قد انصرف إلى الحديث عن جودة الشعر ، وهل هى فى ألفاظه أم فى معانيه ، فأنصار البحترى يعتبرون الشعر صياغة ، ولا يمكن أن يقوم على المعنى وحده ، وأنصار أبى تمام يركزون على المعانى ، وبخاصّة الدقيق والبارع منها دون إهمال لدور الألفاظ ، ويتضح هذا مثلا من أن الصولى المتحمس لأبى تمام يرى أن شعر البحترى مستو ، وأن شعر أبى تمام متفاوت . دون أن يسقط هذا من شاعريّة أبى تمام فى نظره أو يقلل منها .

ويتحدثان عن العوامل التى تقوم عليها شاعرتيهما ، وأول تلك العوامل استقلال الشاعر بشخصيته ، وعدم أخذه من غيره ، أو التلمذة له ، فالآخذ دائما أقل من المأخوذ منه ، لأن مخترع المعنى ، له الفضل دائما ، وهو فضل السبق . وكان هذا الموضوع هو أول ما أثاره أصحاب أبى تمام فى تفضيل صاحبهم على البحترى . وأول موضوع يورده الآمدى فى معرض نقله لاحتجاج الخصمين : أنصار أبى تمام وأنصار البحترى . قال أنصار أبى تمام : «كيف يجوز لقائل أن يقول : إنّ البحترى أشعر من أبى تمام ، وعن أبى تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى ؟ وباراه حتى قيل : الطائى ، والطائى الأصغر»[1] .

وقد فهم الآمدى – أو أنصار البحترى الذين أورد الآمدى دفاعهم عن البحترى أن المقصود تلمذة البحترى لأبى تمام ، وهذا ما فهمه أنصار البحترى. فاصبح همهم منصرفا إلى إنكار هذه التلمذة ، وأخذوا يؤكدون أن شاعرهم التقى بأبى تمام ، وقد صار من النضج والشاعرية بالقدر الذى لا يجعله فى حاجة إلى التلمذة عليه .

---

(١) الآمدى . الموازنة. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد طبعه ٣ ، مطبعة السعادة . القاهرة ١٩٥٩ ص ١٢ .

بل نفوا تلك التلمذة نفيا قاطعا، وبينوا أنه ما صحبه ولا تلمذ له ولا روى ذلك أحد عنه، بل إن البحترى نفسه لم يكن فى حاجة إلى تلك التمذة . وإنه حين التقى به عند أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى كان شاعرا مكتمل الشاعريّة وشاهد ذلك قصيدته :

أفـــاق صَبٌّ من هـــــوى فأفيقا أم خان عهدا. أم أطاع شفيقا[1].

وقد أعجب أبو تمام بالقصيدة وقرظها ، وهى قصيدة «من عين شعره وفاخر كلامه، وهو (أى البحترى) لا يعرف أبا تمام إلا أن يكون بالخبر ، يستغنى عن أن يصحبه أو يتلمذ له أولغيره»[2].

ثم يذكر الآمدى رواية أخرى عن لقاء أبى تمام والبحترى عند أبى سعيد ، ويذكر قصيدة أخرى غير القصيدة التى ذكرنا مطلعها من قبل وهى قول البحترى :

فيم ابتدار كما الملام ولوعا أبكيْتُ إلا دِمْنَةً وَرَبُوعـا

ثم يذكر ثناء أبى تمام على القصيدة[3].

وهنا يبادر أنصار أبى تمام بأن تلك التلمذة ليس من الضرورى أن تكون تلمذة مباشرة ، وإنما هى تلمذة غير مباشرة ، أى تلمذة على الشعر لا الشاعر . فقالوا : «إلا أنه – مع هذا – لا ينكر أن يكون قد استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين ، وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعر أبى تمام فيعلق شيئا من معانيه ، معتمدا للأخذ أو غير معتمد»[4].

ويتساءل الباحث عن سر حرص أنصار البحترى على الدفاع عن تلمذة صاحبهم ، وعن سر استمساك أنصار أبى تمام بأستاذية شاعرهم . والإجابة فى غاية اليسر بالنسبة للفريقين إذ الأستاذ لابد أن يكون أفضل من التلميذ ، هذا على الأقل من وجهة نظر أنصار أبى تمام .

ولكن أنصار البحترى ما كانوا ليتركوا هذا الأمر دون حسم لصالح شاعرهم، ولذا رأوا أن يتركوا التنصل من تهمة التلمذة التى تؤخذ حجّة على نقص شاعرية شاعرهم . فانطلقوا يدللون على أنه ليس من الضرورى أن يكون الأستاذ أفضل من التلميذ وهى نظرة

---

(١) الموازنة ص ١٢ ، ١٣

(٢) ، (٣) ، (٤) نفسه ص ١٣ .

صائبة ، من خلال التراث الشعرى العربى ، فكثير كان تلميذا لجميل ، ولكنه – مع أخذه من جميل، وتلمذته له ، وأخذه من معانيه، أشعر منه[١].

ولكننا لا نجد ربطا بين الموهبة أو الشاعريّة ، وبين تقدم الشاعر ، فإذا كان الأستاذ أكثر موهبة فسيكون أشعر من تلميذه ، وإذا كان الأمر بالنقيض كان التلميذ أشعر ، لأن العبرة بالموهبة لا بالتقدم فى السن ، وقد كان أبو تمام أكبر سنا من البحترى .

وهكذا يصبح مبدأ الأستاذية لا ينهض ، ولا يكفى ليجعل من أبى تمام أشعر من البحترى . وهكذا أخذ أنصار أبى تمام يبحثون عن مبدأ آخر ، يفضلون شاعرهم على أساسه . وهذه المرّة يزعمون أنهم يأخذونه من تفضيل البحترى لأبى تمام على نفسه حيث قالوا إنه سئل عن نفسه وعن أبى تمام فقال «جيده خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه»[٢] ، فهم يرون أن هذا اعتراف من البحترى بأن جيد أبى تمام خير من جيده[٣].

وهكذا يحاول أنصار أبى تمام أن يخرجوا البحترى من حيز الجيد من الشعر ، إلى حيّز الردىء . فالمفاضلة لا تكون بين الردىء والردىء ، وإنما تكون بين الجيد والجيد ، فإذا خسر الشاعر المفاضلة فى نطاق الجيد، فقد سقط كشاعر ، لأنّه إذا ثبت أن الردىء عند أبى تمام أضعف من الردىء عند البحترى ، فلا فضل للبحترى إذن ، وإنما الفضل لأبى تمام الذى يتميز شعره بالجودة ، أو بعبارة أخرى شعره أفضل من شعر البحترى فى مجال الجودة .

وقد حاول أنصار البحترى أن يفسروا العبارة التى تنسب إلى شاعرهم وهى قوله : «جيده خير من جيدى، ورديئى خير من رديئه» لصالح أبى البحترى ، فاستخدموا مصطلحا خاصّا وهو مصطلح «الاستواء» وخلاصة هذا المصطلح ، أن الشعر عند أى شاعر لا ينبغى أن يكون الفرق بين الجيد والردىء منه فرقا كبيرًا . بل ينبغى أن يكون الجيد والردىء متقاربين ، لأن هذا يعنى استواء شعْر الشاعر ، فلا يرتفع بشعره ارتفاعا كبيرا ثم ينحط به انحطاطا قبيحا . ولنعرض لقول أنصار البحترى ليتضح لنا هذا «وأمّا قول البحترى «جيده خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه ..» فهذا الخبر – إن كان صحيحا – فهو للبحترى ، لا عليه ، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام شديد الاختلاف ،

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤ ، ١٥ ،
(٢) المرجع نفسه ص ١٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٢ .

وشِعْرَه شديد الاستواء ، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا – نحن وأنتم – على أن أبا تمام يعلو علوًّا حسنا وينحط انحطاطا قبيحا ، وأن البحترى يعلو بتوسط ، ولا يسقط ، ومن لا يسقط ولا يسفسف أفضل ممن يسقط ويسفسف»[١].

ولكننا نلاحظ أن هذا المبدأ ليس فى صالح البحترى لأنه يسقط شاعريته ، أو على الأقل يجعله فى مرتبة أقل من مرتبة أبى تمام الذى ينفرد بالتحليق إلى مستوى لا يبلغه البحترى .

ولكن أنصار البحترى لا يتوقفون عند حد وصفهم لشعره بالاستواء بل يذهبون إلى إنكار الخبر جملة ، فيذكرون أن البحترى كان «... عند نفسه أشعر من أبى تمام ، ومن سائر الشعراء المحدثين»[٢] ويذكرون أن البحترى سئل عن نفسه ، وعن أبى تمام فقال : «هو أغوص على المعانى (منى) وأنا أقوم بعمود الشعر منه»[٣].

وهكذا يكونون قد انتقلوا إلى مستوى آخر من تفضيل شاعرهم ، فشاعرهم – يدرك – كما يقولون – أنه أشعر من جميع الشعراء المحدثين ، ثم هو لا يمكن أن يفضل أبا تمام على نفسه . ولكنه يحدد وضعه بالنسبة لأبى تمام ، فأبو تمام أغوص على المعانى ، وهو أقوم بعمود الشعر . وهكذا يتضح مذهب كلا الشاعرين وسوف نعود إلى هذا المسألة فى حينها .

ومن عوامل الشاعريّة كذلك التى فضل بها أنصار أبى تمام شاعرهم على البحترى . أن أبا تمام صاحب مذهب فى نظم الشعر عرف به ، وصار إماما متبوعا ، أما البحترى فلم يعرف بمذهب من مذاهب قول الشعر : «فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه ، وصار فيه أوّلا ، وإماما متبوعا ، وشهر به حتى قيل : هذا مذهب أبى تمام ، وطريقة أبى تمام ، وسلك الناس نهجه ، واقتفوا أثره ، وهذه فضيلة عرى عنها البحترى»[٤].

وقد كان أبو تمام صاحب مذهب حقا ، فقد اتخذ البديع مذهبا له . ولكن أنصار البحترى رأوا أن أبا تمام إذا ثبت له هذا الفضل ، وتلك الريادة سقط شاعرهم لتجرده من ذلك الفضل وهو إمامة مذهب من مذاهب قول الشعر . فجردوا أبا تمام من كونه صاحب مذهب . واستخدم الآمدى فى هذا المجال أقوال ابن المعتز فى كتابه البديع

---

(١) ، (٢) ، (٣) المرجع نفسه ص ١٥ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٦ .

قائلا : «ليس الأمر لاختراعه لهذا المذهب على ما وصفته ، ولا هو بأول فيه ، ولا سابق إليه ، بل سلك فى ذلك سبيل مسلم ، واحتذى حذوه ، وأفرط وأسرف ، وزال عن النهج المعروف ، والسنن المألوف ، وعلى أنّ مسلما أيضا غير مبتدع لهذا المذهب ، ولا هو أول فيه ، ولكنه رأى هذى الأنواع التى وقع عليها اسم البديع – وهى : الاستعارة ، والطباق ، والتجنيس – منشورة متفرقة فى أشعار المتقدمين ، فقصدها ، وأكثر منها فى شعره»[1].

ولا نريد أن نستقصى كل ما قيل فى هذا الشأن وحسبنا دلالته وهو أن الشاعر صاحب المذهب أفضل من الشاعر الذى ليس له مذهب ينفرد فيه بنظم الشعر[2]. وإذ قد ثبت أن أبا تمام مقلد لمسلم ، مغال فى هذا التقليد ، لا يكون مع التقليديَّة شاعرا ذا اعتبار .

لكننا مع كل ما يقال لا يمكن أن نجرّد أبا تمام من مذهبيته تلك فى نظم الشعر . فليس المذهب إلا اتباع طريق معين فى التعبير أو السلوك أو ما شاكل ذلك . وكل ما يوصف به من التزام البديع والإكثار منه يدل دلالة قاطعة على أن ذلك مذهب له فى نظم شعره . وممن رأى أن لأبى تمام مذهبًا فى شعره أبو الفرج الأصبهانى ، وإن كان جعله مذهبا فى المطابق ، دون غيره من فنون البديع : فقال : «وله مذهب فى المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الإكثار فيه ، والسلوك فى جميع طرقه[3]».

لكننا مع ذلك نرى أن مذهب أبى تمام ليس فضيلة فى ذاته ، والعبرة بما يقدمه هذا المذهب لصاحبه من إمكانيات التعبير الفنى، وليس مجرّد التعبير بشكل يخالف فيه أساليب معاصريه فليس المذهب مقصودا لذاته أيا كان هذا المذهب ، بل المذهب الجديد دائما يتوخى التجديد لأسباب يرى أن الأسلوب القديم لم يعد صالحا لها أما التجديد لذاته ، ودون غرض واضح ، فيبدو عيبا فى شعر الشاعر لا مزية له . وفى رأيى أنه لا يعيب

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧ وانظر كتابع البديع.

(٢) الصولى . أخبار أبى تمام . تحقيق خليل محمد عساكر وآخرين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ، ١٩٣٧ ص ٣٧ حيث يقول الصولى عن : «أبى تمام وهو رأس فى الشعر ، مبتدئ لمذهب سلكه كل محسن بعده ، فلم يبلغه فيه ، حتى قيل ، مذهب الطائى ، وكل حاذق بعده ينسب إليه ، ويُقْفَىٰ أثره»

(٣) الأغانى جـ ١٦ ، مصورة عن نسخة دار الكتب المصريّة . مؤسسة جمال للطباعة والنشر . بيروت . لبنان ص ٣٨٣ .

obeikandl.com

الذين لا يرضون عن شعر أبى تمام كابن الأعرابى ، وأحمد بن يحيى الشيبانى ودعبل بن على الخزاعى الشاعر المعروف. فيقول : «إنّ ابن الإعرابى وأحمد بن يحيى الشيبانى – وقبلهما دعبل بن على الخزاعى – قد كانوا علماء بالشعر وكلام العرب ، وقد علمتم مذاهبهم فى أبى تمام ، وازدراءهم بشعره ، وطعن دعبل عليه ... الخ»[١]

ويطيل أنصار البحترى فى الاحتجاج بأقوال العلماء التى تدحض ما يذهب إليه أنصار أبى تمام من رضى العلماء بالشعر عنه.[٢]

على أننا نرى أنّه إذا كان شعر الشاعر سيظل محصورا فى نطاق جماعة من العلماء هى التى تستجيده، ولا يستجيده عامّة المثقفين على الأقل ، فإن تلك الاستجاده تصبح لا قيمة لها . وإنما كان ينبغى على أنصار أبى تمام أن يبرزوا جمال شعره فى صورة تطبيقيّة مفصّلة تكشف عن شاعريته ، بدل – أن يستشهدوا برأى العلماء فى ذلك .

ولكن أنصار أبى تمام لا يسكتون على ذلك وإنما يثيرون قضيّة التعصب، فدعبل شاعر، والشاعر يحسد الشعراء الآخرين ، ولا تصح شهادة شاعر فى شاعر، فالمعروف – كما يقولون – أن دعبلا كان يحسد أبا تمام . كما أن ابن الأعرابى كان متعصبا على أبى تمام بدليل أنه لم يكن يفهم شعره فيعيبه فلما فهم شعره امتدحه . ولكنه يأمر بكتابة أبيات لا يعرف قائلها فلما يعرف أنها لأبى تمام يأمر بتمزيقها وهو تعصب صريح ضد الجديد[٣].

ومن الأمور التى تسىء إلى شاعريّة الشاعر أن يعدل عن مذاهب العرب إلى مذاهب أخرى غير معروفة ، وتعصب علماء اللغة ضده أمر مشروع فى رأى أنصار البحترى ، والحق أن حجج أنصار البحترى تصاب بالضعف هنا ، لأن الإنسان لا يستجيد الشىء، ثم يذمه فى لحظة واحدة إلا إذا كان متعصبا خاضعا لهواه ، مجانبًا لمنطق العقل والصواب . وخصوصا إذا كانت الأبيات ناطقة بالجودة كقول اسحق بن إبراهيم الموصلى :

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١ .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) انظر المرجع نفسه ٢٣ ، ٢٤ وانظر موقفا مشابها للأصمعى من شعر لأسحق بن إبراهيم الموصلى حيث امتدح الأشعار عندما قال له اسحق إنها لبعض الإعراب فلما علم أنها لإسحق رفضها . انظر المرجع نفسه ص ٢٤ ، ٢٥ .

هـــل إلى نظـــرة إليك سبيل فيروى الصدى ويشفى الغليل
إنّ ما قـــلّ منكِ يكثر عندى وكثير ممـــن تحب القليل[١]

وننقل النص لما له من دلالة على تعصب الأصمعى : «فقال الأصمعى لمن تنشدنى ؟ فقال لبعض الأعراب ، فقال : هذا والله هو الديباج الخسروانى ، قال : إنهما لليلتهما ، فقال : والله إن أثر الصنعة والتكلف بيّنٌ عليهما»[٢]

ولاشك – كما قلنا – إن هذا تعصب صارخ لا يبرره قول أنصار البحترى : «فالأصمعى فى هذا غير ظالم ؛ لأن اسحق – مع علمه بالشعر ، وكثرة روايته – لا ينكر له أن يورد مثل هذا ، لأنه يقوم فى النفس أنه قد احتذاه على مثال ، وأخذه من متقدم ، وإنما يستطرف مثله من الأعرابى الذى لا يعوّل إلا على طبعه وسليقته. وابن الأعرابى فى أبى تمام أعذر من الأصمعى فى اسحق لأن أبا تمام كان مغرما مشغوفا بالشعر ، وانفرد به وجعله وكده ، وألّف كتبا فيه، واقتصر من كل علم عليه ، فإذا أورد المعنى المستغرب لم يكن ذلك ببدع له ، لأنه يأخذ المعانى ويحتذيها ، فليس لها فى النفوس حلاوة ما يورده الأعرابى القح[٣]».

وهنا يلاحظ على أقوال أنصار البحترى المغالطة الواضحة فالجيد لا يكون جيّدًا إذا جاء به البدوى ، فإذا نظمه الحضرى الحديث أصبح معيبا ، وإنما الجيد جيد أينما كان مصدره . فالاحتذاء لا يسقط الإبداع كلية، ولا الدراسة للشعر ، وتأليف الكتب مما يعيب الشاعر .

وهنا ننتقل إلى عنصر آخر من عناصر الشاعريّة عند أنصار أبى تمام الذين أرادوا أن يدافعوا عن علم شاعرهم أو ثقافته فالشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم : «.. فقد أقررتم لأبى تمام بالعلم والشعر والرواية ، ولا محالة أن العلم فى شعره أظهر منه فى شعر البحترى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم[٤]» .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥ .
(٢) المرجع نفسه ص ٢٤ .
(٣) المرجع نفسه ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) المرجع نفسه ص ٢٥ .

وهنا يعمد أنصار البحترى إلى شعر بعض العلماء الذين لم تكن لديهم موهبة الشعر ، مثل الخليل بن أحمد والأصمعى ، والكسائى ، وخلف الأحمر ، وكان شعرهم من حيث الجودة أقل من شعر الشعراء الذين ليسوا بعلماء ، أو الذين لم يتخصصوا بالمعارف اللغويّة أو غيرها[١]: «فقد كان التجويد فى الشعر ليست علته العلم ، ولو كانت علته العلم لكان من يتعاطاه من العلماء أشعر ممن ليس بعالم ، فقد سقط فضل أبى تمام من هذا الوجه على البحترى ، وصار البحترى أفضل وأولى بالسبق ، إذ كان معلوما شائعا أن شعر العلماء دون شعر الشعراء»[٢].

وتبدو حجج أنصار البحترى هنا متعسفة ، وغير منطقية لأن المفاضلة بين الشاعر العالم وغير العالم تصح إذا كانت بين شاعرين على مستوى واحد من الشاعريّة ، لأنهما إذا تساويا فى الموهبة ، كان أكثرهما علما وثقافة أجودهما شعرًا ، لما تكسب الثقافة صاحبها من معرفة وخبرة بالحياة . أما أن يكون نظم العلماء الذين ليسوا شعراء فى الغالب هو المعيار ، فسوف يكون ذلك المعيار غير دقيق .

وقد يتساءل المرء عن سرّ دفاع أصحاب أبى تمام عنه بأنه شاعر عالم ، واعتبارهم العلم ميزة يتفوق بها الشاعِرُ على غيره من الشعراء . ويتضح هذا إذا علمنا أن أنصار البحترى يتهمون أبا تمام بأخذ معانى القدماء واحتذائها، وهو – من وجهة نظرهم – يكون مقلدا ، أو محتذيا على أمثلة سابقة . وذلك بسبب معرفته الواسعة بالشعر . ويدخل فى إطار الاحتذاء فكرة أخرى وهى أن لشعر المبتدىء حلاوة ، لا تكون لشعر المقلد . فإذا جاء الشعر من البدوى كان له وقع أجمل، وأثر أبلغ، لأنه مبتدع له ، قائل له على السليقة . فتكون له – كما قلنا – حلاوة لا تكون لشعر المحتذى . يقولون : «لأن أبا تمام كان مغرما مشغوفا بالشعر ، وانفرد به وجعله وكده ، وألّف كتبا فيه ، واقتصر من كل علم عليه ، فإذا أورد المعنى المستغرب ، لم يكن ذلك ببدع له ، لأنه يأخذ المعانى ويحتذيها ، فليس لها فى النفوس حلاوة ما يورده الأعرابى القح»[٣]. ونرى هذه الفكرة نفسها –وهى أن الشعر النابع من السليقة ، الصادر عن الطبع ، وهو شعر البدوى، يكون أكثر تأثيرًا فى النفس من شعر الشاعر الصانع ، حتى لو استخدم الأخير أدوات البديع كلها ، وحتى لو جاءت أشعار الشاعر الصانع بارعة[٤].

---

(١) ، (٢) ، (٣) المرجع نفسه ص ٢٥ .

(٤) على بن عبد العزيز الجرجانى . الوساطة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين دار القلم . بيروت . لبنان . د . ت ص ٣٢ ، ٣٣ .

وينتقل الخلاف بين أنصار الشاعرين إلى جانب آخر من جوانب فنيّة الشعر ، وهى «قضيّة الغموض والوضوح» فأنصار أبى تمام يرون شعره غامضا – لا لضعف فى شاعريّة صاحبه – وإنما لأنه يأتى فى شعره بمعان فلسفية وألفاظ غريبة ، متى فهمت معانيها، فهم شعره . ووقع من متلقيه موقع الاستحسان والإعجاب . ولكن أصحاب البحترى يرفضون هذا ، ويرون أنّ ما يزعمه أصحاب أبى تمام من أن البدو يفهمون شعره بعد شرح غامضه وفلسفيه وغريبه ، قول يحتاج إلى دليل[١].

وهنا ينتقل أصحاب البحترى إلى نقطة جديدة ، وهى أن أبا تمام يحسن فى شعره ، ويسىء ، أما البحترى فلا يسىء فى شعره ، وإنما يحسن فقط . ويعرضون لهذه القضيّة وكأنّها مما اتفق عليه أنصار الشاعرين . فيقولون : «ولكنكم معترفون ومجمعون مع من هو معكم وعليكم أنّ لصاحبكم إحساناتٍ وإساءات ، وأنّ الإحسان للبحترى دون الإساءة ، ومن أحسن ولم يسىء أفضل ممن أحسن وأساء»[٢].

ولَعلّ أصحاب البحترى يقصدون بوصف شعر أبى تمام بالجمع بين الإحسان والإساءة إلى «التفاوت» فى شعره ، فى حين فهم أنصار أبى تمام من كلامهم أنهم يقصدون اللحن الذى يقع فيه أبو تمام . وهنا يعلن أصحاب البحترى أنهم لا يأخذون اللحن على أبى تمام مع كثرته فى شعره[٣] «وإنما عبناه بخطائه فى معانيه ، وإحالته فى استعاراته ، وكثرة ما يورد من الساقط ، والغث البارد ، مع سوء سبكه ورداءة طبعه ، وسخافة لفظة»[٤].

وهنا ينتقل أنصار البحترى إلى الجانب الفنى من الشعر ، وهو جانب الصياغة . كالخطأ فى المعنى ، والإحالة فى الاستعارة ، وكثرة الردىء من شعره ، وسوء صياغته ، ورداءة طبعه ، والطبع هنا الموهبة .

ولم يستسلم أنصار أبى تمام لهذه المطاعن على شعره ، وإنما دافعوا عن ذلك ، بأن ما يؤخذ على أبى تمام من خطأ فى اللفظ أو المعنى قد أخذ على القدماء ، ولم يسقط شاعرا منهم ، فلماذا تريدون إسقاط شعر أبى تمام به ، مع أنّه أى الخطأ فى اللفظ والمعنى ، قليل فى شعره وأغلب شعره روائع وبدائع[٥].

---

(١) ، (٢) الموازنة مرجع سابق ص ٢٧ .
(٣) المرجع نفسه ص ٢٨ .
(٤) انظر المرجع نفسه ص ٣٥ – ٤٧ .
(٥) المرجع نفسه ص ٣٥ – ٤٠ .

والحقيقة أنّ ما أخذ على أبى تمام من الخطأ فى معانيه ، إنما هو فى أبيات معدودة من شعره ففى أخطائه فى معانيه يورد ٤٣ ثلاثة وأربعين بيتا يكون اهتمامه فيها إمّا بوضع اللفظ فى غير موضعه ، أو مخالفة الاستعمال ، أو حذف لا يستقيم به المعنى ، أو تقسيم غير موفق أو استعارة غير موفقه .

وهى كما نرى أبيات معدودة بالقياس إلى إنتاج أبى تمام الضخم . وبخاصّة أنّه لم يدرس قصيدة كاملة له ، فيبيّن ما فيها من معايب .

ويصبح كل ذنب أبى تمام مخالفته للعادة والعرف ، فى التعبير والصياغة . وكل مزيّة البحترى أنه ما فارق عمود الشعر المعروف ومن الأشياء التى تتم الشاعريّة ويجود بها الشعر ما يسميه الآمدى «الانتهاء إلى نهاية الصنعة» والانتهاء إلى نهاية الصنعة واحد من عدة عناصر فى صنعة الشعر يذكرها الآمدى «وهى : جودة الآلة ، وإصابة الغرض المقصود ، وصحّة التأليف والانتهاء إلى نهاية الصنعة من غير نقص منها ولا زيادة عليها .. وهذه الخلال الأربع ليست فى الصناعات وحدها ، بل هى موجودة فى جميع الحيوان والنبات»[١].

فمن كانت صنعته محكمة فى شعره كان أشعر وكان شعره أجود ، وصحّة التأليف تعنى الصناعة المحكمة للشعر : «فصحّة التأليف فى الشعر وفى كل صناعة هى أقوى دعائمه بعد صحّة المعنى ، فكل من كان أصح تأليفا كان أقوم بتلك الصناعة ممن اضطرب تأليفه .»[٢]

ولكن الآمدى يتنبه إلى أن الشعر يختلف عن مادة الصناعة ، فى الصناعات المختلفة ، لأنه وإن كانت الألفاظ هى مادة الشعر أو آلة الشاعر ، فإن تلك الآلة وهى «ألفاظ الشاعر» والهيولى التى يشكل منها شعره ، تختلف — كما قلنا — عن خشب النجار ، وفضّة الصائغ وآجر البناء ، فى أن الألفاظ لها معانى تحدد العلاقة بينها ، فى حين أن أدوات الصناعة الأخرى لا معنى لها ، ولذلك اشترط الآمدى صحّة المعنى أولا ، فإذا صَحّ المعنى ، بدأت الصناعة فى الشعر .

---

(١) الآمدى . الموازنة . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . ط ٣ . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٣٨٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٨٣ .

وصحّة المعنى وحدها لا تجعل الشعر شعرا ، وإنما الصناعة هي التي ترفع هذا المعنى الصحيح إلى مستوى الشعر الجيد . «لأن الشعر أجوده أبلغه والبلاغة إنما هي إصابة المعنى وإدراك الغرض ، بألفاظ سهلة ، مستعملة سليمة من التكلف ، ولا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة ، ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية»[١] ولا نريد هنا أن نفصل في فكرة الآمدي ، وإنما حسبنا أن نبين دور الصنعة في اكتمال شاعريّة الشاعر ، وأنها تأتي بعد صحّة المعنى لأن الصنعة في الشعر تعتمد على ألفاظ لها معان ، وتختلف عن الصناعات الأخرى التي تتشكل من مواد لا معنى لها ، كما بينا.

والصولي نفسه لا ينكر صنعة أبي تمام ، ولكنه يراها صنعة كالاختراع ، يتعب فيها صاحبها حتى لا ينازعه فيها منازع وإن كان ربما أخذ معانيها من غيره . وهو هنا يرى الصنعة في المعاني ، ولا يشير إلى الألفاظ من قريب أو بعيد ، ولكنه يرى أن الصنعة تتم في المعنى ، ويأتي البديع لتوشيح ذلك المعنى ، وكأنه هو والآمدي يتفقان على مفهوم الصنعة ، وأنها تكون بعد أن يتم المعنى . وهما بعد ذلك مختلفان فالآمدي يركز على الصنعة اللفظية ولا يولي المعنى أهميّة كبيرة ، في حين يركز الصولي على المعنى . يقول الصولي : «وليس أحد من الشعراء –أعزّك الله– يعمل المعاني ، ويخترعها ، ويتكيء على نفسه فيها أكثر من أبي تماما ، ومتى أخذ معنى زاد عليه ووشحه ببديعه ، وتتم معناه ، فكان أحق به»[٢]

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٨٠ .

(٢) الصولي أخبار أبي تماما. تحقيق خليل محمود عساكر وآخرين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ، ١٩٣٧ ص ٥٣ .